العالم العربي ومستقبله

●

يجابه العالم العربي اليوم فترة من التاريخ قد تقرر مصيره الى اجيال. فمستقبله مرهون بما ستتمخض به الايام من حوادث ، وبما سيفعله العرب أنفسهم لقاءها . أما الحوادث فلا نستطيع ان نتحكم بها ، غير اننا مخيرون في موقفنا منها وفي تعيين اهدافنا والسعي الى تحقيقها .

اما العامل الرئيسي في مصيرنا او مصير اية امة أخرى فهو العقيدة التي تدين بها تلك الامة والرسالة التي تختار ان تؤديها .

وإذ أتصدى الآن للبحث في مصير العالم العربي ومستقبله لا ادعي النبوة بل اعالج الموضوع كطالب علم موضوعه التاريخ العربي — يعرف الماضي ويخشى الحاضر ويؤمن بالمستقبل . وقصدي ان اقدم اليكم عقيدة عربية قد تضمن لنا المستقبل مهما اكفهرت غيوم اليوم .

عقيدتي العروبة باوسع معانيها .

أعتقد ان العروبة اساسٌ صالح للتقدم البشري قادرة على خلق جزء من حضارة العالم. أعتقد هذا لاني أعرف التاريخ تاريخ العرب. فقد كانت العروبة أساساً متيناً للتقدم البشري وقد خلقت جزءاً

من حضارة العالم . فقد رفعت العروبة في القرون الوسطى نبراس العلم عالياً بينما خيمت ظلمات الجهل على الغرب ، وكانت اللغة العربية لغة العلم والفلسفة والتجارة من القرن التاسع حتى القرن الثاني عشر [١] . وحفظت هذه اللغة تراث الجنس العلمي وحافظت عليه ونقلته حتى الصين شرقاً وحتى الاندلس غرباً .

تلك آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا الى الآثار

وان نظرة واحدة الى خريطة العالم تظهر لنا ان العرب تركوا آثارهم في بقاع الارض وبحارها . فها جبل طارق والحمراء يشهدان لهم بذلك في الغرب ، وباب المندب ووادي القنال يرجّعان ذكرهم في الشرق .

وان نظرة واحدة الى القبة الزرقاء لتحدث بمجدهم وتشيد به . فقد كتبوا اسماءهم في السماء باسماء النجوم والثوابت « حتى ان اكثر من نصف النجوم المعروفة اليوم باسمائها تحمل اسماء عربية في الكتب الاوروبية نفسها » [٢] ، كالدبران والعقرب والجدي والطائر والذنب والفرقد [٣] وغيرها . وها العالم يعترف بفضلهم كلما قام معلم لتدريس الكيمياء والحساب والجبر ، ويلهج بذكرهم كلما رشفت شفة الشراب والكحل والجلاب، ويسبح بمجدهم كلما

---

(١) راجع : Philip K . Hitti , « America and the Arab Heritage » , in *The Arab Heritage* , ed . Nabih A. Faris (Princeton, 1944) p. 1.

(٢) راجع عمر فروخ « عبقرية العرب في العلم والفلسفة » (دمشق ، ١٩٤٥) ص ٥٣ .

(٣) راجع : *The Arab Heritage*, pp. 2-8

تكحلت عين بالاثمد، وكلمـــا التفت غادة حسناء بالحرير الشفاف والكتان ، واستلقت على صفة او مطرح او ديوان [1] .

فالعرب هم الذين جعلوا صناعة الكيمياء علماً قائماً على التنقيب والبحث والاختبار العلمي بعد ان كانت مدعاة للنظريات الفاسدة والتخمين والخرافات والغش . ولا يزال الغرب يعترف لجابر بن حيّان [2] بالفضل (او جابر التآليف الكيماوية ان داخلكم الشك في شخصية جابر بن حيّان التاريخية وفي ازدهاره في القرن الثامن للميلاد). وقد نقلت تآليف جابر هذا الى اللاتينية على اثر ظهورها في الغرب في اثناء القرن الثاني عشر . ودخلت تراث الغرب العلمي عن طريق هذه الترجمات اصطلاحات لا تزال حتى يومنا هذا جزءاً من ميراثه. من هذه الاصطلاحات realgar وهو رهج الغار أو الرهج الاحمر، و alkali وهو القلي، وتوتيا، و alembic أي الانبيق وهو القسم الاعلى من آلة التقطير، و aludel أي الاثال وهو القسم الاسفل منها [3] .

والعرب هم الذين عمموا استعمال الارقام الهندية والصفر ولا تزال هذه الارقام تعرف في الغرب بالارقام العربية، وكذلك الصفر اذ يعرف في الغرب باسمه العربي . وكان العرب أول من استعمل

---

(١) راجع : *The Arab Heritage*, pp. 2-5

(٢) ابن النديم «الفهرست» تحرير غوستاف فلوغل (ليبسك، ١٨٧٢) ص ٣٥٦، 'George A. Sarton , *Introduction to the History of Science* Vol. I (Baltimore, 1927), pp. 532-3 .

(٣) راجع : Thomas Arnold and Alfred Guillaume , *The Legacy of Islam* (Oxford, 1931), p. 328.

الفاصلة في الكسر العشري [1] .

اما صاحب الفضل في تحسين الارقام الهندية ووضعها موضع التطبيق فابو عبد الله محمد بن موسى الخوارزمي [2] احد الانوار العلمية التي تلألأت في فلك العلوم العربية في ايام المأمون العباسي . والخوارزمي هذا واضع علم الجبر على اساسه العلمي وبه اصبح هذا الفرع من الرياضيات علماً كاملا ، ومنذ ذلك الوقت والجبر يعرف في جميع اللغات باسم الكتاب الذي الفه الخوارزمي فيه أي « حساب الجبر والمقابلة » [3] . وكان للعرب فضل كبير على علم التفاضل والتكامل فهم الذين مهدوا السبيل لايجاده . ولولاهم لما كان لعلم المثلثات نظام أو ترتيب اذ اليهم يرجع الفضل في وضعه على شكل علمي منظم [4] .

وللعرب مآثر خالدة في علم الفلك والرصد اذ تحققوا ان الارض كروية تسبح في الفضاء، وقاسوا خط الهاجرة ومحيط الارض قياساً دقيقاً يقرب من القياس الذي اجمع عليه العلماء في هذا العصر . وكانوا أول من قام بقياس محيط الارض قياساً حقيقياً بطريق علمي صحيح . واقتبس الغرب عن العرب علاوة على اسماء بعض النجوم اصطلاحات علمية تشهد على ما كان لتراث العرب من اثر في

---

(١) *The Legacy of Islam*, pp. 376-397 وفروخ « عبقرية العرب » ص ٤١ - ٥٦ .

(٢) « الفهرست » ص ٧٤ الخ و Sarton جزء ١ ص ٥٦٣ - ٥٦٤

(٣) *The Leyacy of Islam* , pp. 381-6.

(٤) فروخ « عبقرية العرب » ص ٤٧-٤٨

حضارة العالم . من هـــذه الاصطلاحات azimuth أي السموت و nadir أي النظير و zenith أي السمت[1] .

وللعرب صفحات مجيدة في صناعة الطب كان لها اثر بعيد في تقدم العلم وتطوره في الغرب . فـــأول من شخص الجـــدري تشخيصاً علمياً وفرّق بينها وبين الحصبة هو الرّازي[2] ٩٢٣ م وقد عرفه الغرب باسم Rhazes . ونقلت رسالته في الجدري والحصبة الى اللاتينية وغيرها من اللغات، وطبعت اربعين مرة ما بين ١٤٩٨ و ١٨٦٦. وكان الرّازي أول من استعمل الفتيلة في الجرح[3].

وعرف الغربيون علي بن عباس المجوسي ٩٩٤م باسم Haly Abbas ونقلوا كتابه « كامل الصناعة الطبية » الى اللاتينية . نقله اسطفان الانطاكي واكمل ترجمتـــه سنة ١١٢٧ م . وفي الكتاب وصف الجاذبية الشعرية، وكلام موجز عن الدورة الدموية، وبرهان ان الجنين لا يخرج من رحم امه بنفسه بل بفعل تمدد عضلات الرحم وتقلصها. ويمتاز هذا الكتاب بانه المؤلف العربي الوحيد الذي وصل الى الغرب عن يد الصليبيين في سورية[4] .

---

(١) *The Arab Heritage*, p. 3; Philip K. Hitti , *History of the Arabs* (London, 1940), p. 573 .

(٢) « الفهرست » ص ٢٩٩- ٣٠١ والقفطي « تاريخ الحكماء » تحرير يوليوس ليبرت (ليبسك، ١٩٠٣) ص ٢٧١-٢٧٧ وابن ابي اصيبعة « عيون الانباء في طبقات الاطباء » تحرير امريء القيس الطحان (القاهرة، ١٨٨٢) ص ٣٠٩ - ٣٢١) و Sarton جزء ١ ص ٦٠٩ - ٦١٠ .

(٣) *History of Arabs*, pp. 365-7

(٤) *History of the Arabs*, pp. 367, 663.

وبلغ الطب العربي اوجه بالشيخ الرئيس ابي علي الحسين بن عبد الله بن الحسن ابن سينا ١٠٣٧ م[١] . جمع الشيخ الرئيس تراث الطب اليوناني وما ادخله العرب عليه من التحسينات والزيادة في كتاب شامل جامع يسمى « القانون » . تبحث هذه الموسوعة الطبية في الطب اجمالا وفي الادوية المفردة والامراض التي تنتاب اعضاء الجسم من الرأس الى القدم وفي الامراض الغريبة والصيدلة اي تركيب الادوية المعروفة في ذلك العصر بالاقراباذين. ونقل هذا الكتاب الى اللاتينية في القرن الثاني عشر على يد جيرارد الكريموني . وكان الاقبال عليه عظيما حتى اضطر الى نشره ست عشرة مرة في الثلاثين السنة الاخيرة من القرن الخامس عشر ، ونشر ايضاً عشرين مرة في القرن السادس عشر . ولا تشتمل هذه الارقام على ما نشر من « القانون » من الاجزاء . اما الشروح في اللاتينية والعبرانية وغيرهما من اللغات فبلغت عدداً عظيما لا يحصى . وبقي « القانون » الكتاب المعول عليه في دراسة الطب في جامعات اوربا من القرن الثاني عشر الى اواسط القرن السابع عشر[٢] . وذكر الدكتور وليم اوسلر في كتابه « تطور علم الطب الحديث » المطبوع في نيوهافن ١٩٢٢ ان « القانون » بقي « الكتاب المقدس » في الطب مدة لم يتمتع بها غيره من الكتب[٣] .

(١) ابن ابي اصيبعة – جزء ٢ ص ٢ – ٢٠ والقفطي – ص ٤١٣ – ٤٢٦ .

(٢) Sarton. I, pp. 709-13; *History of the Arabs*, pp. 367-8; *The Legacy of Islam*, pp. 329-30 .

(٣) William Osler, *The Evolution of Modern Medicine*, (New Haven, 1922), p. 98 .

ومن اعظم مآثر العرب الطبيـــة المبتكرة اكتشاف الدورة الدموية الصغرى . فقد بقي فضلهم في ذلك مجهولا حتى سنوات،[1] ونسب الاكتشاف الى خمسة رجال على الاقل واقيمت التماثيـــل تكريماً لهم واعترافـــاً بفضلهم المزعوم . وجميع هؤلاء الخمسة من رجال القرن السادس عشر . واشهرهم سرفيتوس البرتغالي . كتب سرفيتوس هذا كتاباً في التوحيـــد جلب عليه غضب الكنيسة الرومانية فهرب الى جنيف مؤملا ان يعيش في أمن وسلام في ظل مدينة كلفن الفاضلة . غير ان امله ذهب سدى وكان مثله مثل :

المستجير بعمرو عند كربته كالمستجير من الرمضاء بالنار

إذ القي عليه القبض وحوكم بتهمة الزندقة وقتل حرقاً بالنار عام ١٥٥٣ م .

اما مكتشف الدورة الدموية الصغرى الحقيقي فعلاء الدين علي ابن ابي الحزم القرشي المعروف بابن النفيس ، نشأ في دمشق ودرس صناعة الطب على مهذب الدين الدخوار . وبعد ان اتم علومه الطبية توجه الى القاهرة وتسلم ادارة البيمارستان المنصوري الذي بنـــاه قلاوون في العقد التاسع من القرن الثالث عشر . وبقي ابن النفيس

(١) يعود الفضل في ذلك الى طبيبين عربيين هما سامي حـداد وامين خيرالله . راجع :

Haddad and Khairallah , « A Forgotten Chapter in the History of the Circulation of the Blood », in *Annals of Surgery*, vol. 104 (July, 1936) ,no. 1, pp. 1-8 راجع ايضاً سامي حداد – مكتشف الدورة الدموية الصغرى ، من هو ؟ في « المقتطف » (أكتوبر ، ١٩٣٦) ص ١-٩ .

عميد هذا البيمارستان الى ان ادركته الوفاة عام ١٢٨٨ م . وقد خلف لنا كتباً طبية عديدة اشهرها « الشامل » و «شرح القانون». وله مؤلفات اخرى منها « رسالة الانسان الكامل » ، في تأييد مذهب التوحيد . وقد ذكر ابن النفيس وصف الدورة الدموية الصغرى في خمسة مواضع من كتابه « شرح القانون » ومرة في مقدمة « رسالة الانسان الكامل » ومن غريب الصدف ان سرفيتوس المذكور ، احد الخمسة الذين نسب اليهم اكتشاف الدورة الدموية الصغرى ، كتب وصفه لها في مقدمة كتابه في التوحيد، ذلك الكتاب الذي جر عليه البلاء . فهل يا ترى اطلع سرفيتوس على رسالة ابن النفيس فانتحلها فكان ذلك سبباً لهلاكه ؟

*

يضيق بي المقام اذا استرسلت الى مثل هذه الآثار التي تشهد على ما كان للعرب من ضلع في حضارة العالم ومدنيته . ويكفيهم فضلا انهم هم الذين حفظوا الحياة العلمية حية في عصر كان الغرب فيه يتلمس طريقه في دياجي الجهل. وقد يتعرض مدرس التاريخ الى المعيشة في احضان الماضي فيركن اليها ويستولي عليه السبات العميق . ومن عظيم آفاتنا في هذا العصر الالتفات الى الماضي والمعيشة في احضانه . وما قصدي من سرد ما سردت الا بيان حقيقة واحدة : ان العروبة التي ندين بها كانت ولا تزال اساساً صالحاً للتقدم البشري ، وكانت ولا تزال قادرة على خلق جزء من حضارته . ويحق لنا ان نفتخر بما فعله الاجداد والسلف الصالح .

وان حق لنا الفخر فيحق علينا العمل لاحياء ما فات . قال

المتوكل الليثي :

لسنا وان احسابنا كرمت يوماً على الاحساب نتكل
نبني كما كانت اوائلنا تبني ونفعل مثلما فعلوا [1]

ولو صح الوزن او لم يصح سنفعل خيراً مما فعلوا .

وغايتي من بيان هذه الحقيقة وتكرارها ان اردّ ما كثر ترداده في هذه الايام : ان العروبة لاتصلح لعالم القرن العشرين وانها خلو من كل وحي والهام . لذلك يقتضي على محبي التقدم والفلاح ان ينهجوا نهجاً آخر وان يتخذوا قبلة اخرى (فلنولينك قبلة ترضاها) . فمنهم من يصلي نحو باريس ومنهم من يولي وجهه نحو موسكو وآخرون يخرون امام عشتاروت لزعمهم انهم فينيقيون وآخرون يتعبدون لحضارة البحر المتوسط وغيرهم يقول بالفرعونية .

عقيدتنا العروبة — وحدة صالحة حية فعالة ، وان شاءت الهجانة ان تقضي عليها . وحالي مع هؤلاء حال الرياشي مع بني العباس بعد ان عبث بهم التسري وفشت بينهم الهجانة :

ان اولاد السراري كثروا يارب فينا
رب ادخلني بلاداً لا ارى فيها هجينا [2]

ما هي هذه الوحدة الصالحة ، وعلى اي الاركان تقوم ؟

من الناس من يحاول ان يجعل العنصرية ركناً من اركان هذه

---

(١) الخطيب « شرح ديوان اشعار الحماسة لابي تمام » (القاهرة ، ١٢٩٦) جزء ٤ ص ١٤٠

(٢) المبرد « الكتاب الكامل » تحرير وليم رايط (ليدن ، ١٨٦٤) جزء ١ ص ٣٠٢

الوحدة لا بل ركنها الاوحد . وكيف تقوم للعروبة قائمة اذا رفع بناؤها على العنصرية في وقت كثر فيه التسري واختلط فيه المجين بالاصيل ؟ ونحن نعيش في عصر لم يبق فيه للاصالة من اثر . فاين نجد العراقـــة في النسب ، واين الاصيل سليل البيت والحسب ؟ أتحسب ملك بريطانيا انكليزياً بالتعريف العنصري، وعائلته عائلة هانوفر الجرمانية غير اسمها الى وندسور بعيد الحرب العالمية الاولى؟ او ندعو فيصل بن سعود عربياً اصيلاً من حيث العنصرية وامـه تركية ؟او نسلم بان عبد الله المتملك على شرق الاردن هاشمي عريق وفي عروقه دماء غير عربية ؟ ان جورج السادس انكليزي قح اذا جعلنا اللغة والتربية التاريخيـــة مرجعنا . وفيصل بن سعود وندة عبد الله بن الحسين عربيان من صميم العرب من حيث اللغة والتربية التاريخية .

ومنهم من جعل الرقعة الجغرافية اساساً لهـذه الوحدة . فاذا سلمنا بذلك يصبح الاجنبي الذى عاش بين ظهراني العرب، قرونا واجيالا ،عربياً .وهذا مخالف للواقع والحقيقة .

ومنهم من يجعل الدين ركناً من اركان هذه الوحدة . وهـذا ايضاً مخالف للواقع والحقيقة التاريخية . فالقطامي [1] والاخطل [2]

---

(١) الاصفهاني « كتاب الاغاني » (بولاق ، ١٢٨٥) جزء ٢٠ ص ١١٨ — ١٣٢ ، ابن قتيبة « الشعر والشعراء » تحرير دي غويه (ليدن ، ١٩٠٤) ص ٤٥٣ — ٤٥٦

(٢) « الاغـاني » جزء ٧ ص ١٦٩ — ١٨٨ ، ابن قتيبـة ص ٣٠٩ - ٣١٢

وحنين بن اسحق[1] كانوا نصارى، والسموأل[2] وابن سهل الاسرائيلي[3] وابن ميمون[4] كانوا يهوداً ، وثابت بن قرّة[5] والبتاني[6] كانا من عبدة النجوم الذين ادعوا الصابئية في ايام المأمون طمعاً بالحصول على حقوق أهل الذمة . على ان القطامي والاخطل وحنين بن اسحق والسموأل وابن سهل الاسرائيلي وابن ميمون وابن قرة والبتاني كانوا جميعاً من صميم العرب ، نفتخر اليوم بهم ونستشهد باقوالهم ونباهي بافعالهم . ليس الدين من اركان العروبة ، لا ولم يكن يوماً من اركانها . اقول هذا مع علمي ان العرب لم يدخلوا في التاريخ الا تحت راية الاسلام . غير ان الذين ساروا تحت تلك الراية ونصبوها في ثلاث من قارات الارض الخمس كانوا مسلمين وغير مسلمين .

ان دعائم هذه الوحدة الصالحة ترتكز على ركنين لا ثالث لهما : اللغة والتربية التاريخية .

ما هي اللغة اذاً ؟ أهي سلسلة من الاصوات ينطق بها الانسان

(١) « الفهرست » ص ٢٩٦ ، القفطي ص ١٧١ ـ ١٧٧ ، ابن ابي اصيبعة جزء ١ ص ١٨٤ ـ ٢٠٠

(٢) « الاغاني » جزء ١٩ ص ٩٨ ـ ٩٩ ، الجمحي « طبقات الشعراء » تحرير جوزف هل (ليدن ، ١٩١٦) ص ٧٠ ـ ٧١

(٣) الكتبي « فوات الوفيات » (القاهرة، ١٢٩٩) جزء ١ ص ٢٣ ـ ٢٧

(٤) القفطي ص ٣١٧ ـ ٣١٩

(٥) « الفهرست » ص ٢٧٢، القفطي ص ١١٥ ـ ١٢٢ ، ابن ابي اصيبعة جزء ١ ص ٢١٥ ـ ٢٢٠

(٦) القفطي ص ٢٨٠ ـ ٢٨١

للتعبير عن حاجاته ؟ ام هي وسيلة لبيان المعاني وإحكامها، واحياناً لابهامها وإشكالها؟ ام هي خزانة لتراث الشعب وثقافته ؟ ام ديوان لاشعاره وآدابه ؟ ام مرآة لامانيه وآماله ؟ ام سجل لا يمحى ولا يزول لمدنيته وآثاره ؟ ام مفتاح لافكاره واعماله قبل التاريخ ؟ هي هذه كلها واكثر . هي جزء من كيان الشعب الروحي . هي رمز وحدته الروحية وركنها الاعظم .

ولعل الضجيج الذي علا صوته في العقود الثلاثة الاخيرة من السنين والذي اتخذ مظاهر شتى، منها الدعوة الفينيقية والدعوة الى حضارة البحر المتوسط والفرعونية واستبدال الخط اللاتيني بالعربي وتشجيع اللهجات العامية يعود الى ما يضمره اعداء العروبة لها . فرأوا ان الطريقة المثلى للقضاء عليها هي بالقضاء على رمز وحدتها وكيانها الأعظم ـ اللغة العربية . واذا اعملنا النظر والبحث في هوية القائلين بهذه الدعوات والحركات من فينيقيين او فرعونيين او القائلين بحضارة البحر المتوسط نجدها محصورة في نوعين :

الاول جاهلو اللغة العربية المتفرنجون الذين اعتنقوا لغة او لغات أخرى واتخذوا حضارتها حضارة لهم وتقيدوا بتفكيرها ، لان اللغة قيد من قيود التفكير وحدّ من حدوده . أقول جاهلي اللغة العربية إذ أن معظم القائلين بالفينيقية والفرعونية وحضارة البحر المتوسط لا يحسنون اللغة العربية ولا يستعملونها اداة للكلام والكتابة، وقلّ منهم من كتب بها رسالة الى ابيه او أمه . ومنهم من يستصعبون اللغة العربية وتستهويهم اللغات الاجنبية التي تلقنوها منذ حداثتهم فيركنون اليها . ومنهم فئة مرتزقة تعيش

على ظهر العربية وتنال منها في آن واحد .

النوع الثاني يحسب العروبة والاسلام مرادفين وتجيش في فؤاده نيران التعصب الديني ، ولا يرى سبيلاً الى التغلب على الاسلام الا بالتغلب على العربية لغة الاسلام ، فيدعو الى الفينيقية او الفرعونية او غيرهما ويرفع لواء اللهجات العامية وينادي باستبدال الاحرف اللاتينية بالاحرف العربية .

ولهذه الحركات الهدّامة او الشعوبية الحديثة سبب آخر تاريخي هو عدم توفر المساواة بين رعايا الخليفة او السلطان على اختلاف مللها ونحلها . فلم يستو المسلم وغير المسلم امام الشريعة وكان على الواحد الزكاة وعلى الآخر الجزية ، واختلفت الحقوق والواجبات المدنية باختلاف الدين : وبكلمة موجزة لم يكن الذمي يوماً مواطناً بل ذمياً .

وما الفينيقية والفرعونية وغيرهما من عنعنات اليوم الا كالحركات الشعوبية بالامس – محاولات يائس للتفلت من قيود اثقلت كاهله . ولا تظنن ان العرب تفردوا بهذا النظام السياسي . فحتى الامس والكاثوليكي واليهودي في بلاد الانكليز نفسها كانا محرومين من التمتع بحقوق الرعية من اتباع الكنيسة الرسمية والقيام بواجباتها . غير ان هذه الحالة قد زالت هنالك ويجب ان تزول في الاقطار العربية كلها اذا اردنا ان نرفع دعائم البيت على أساس متين . ففصل الدين عن الدولة اذاً من اول واجبات العربي اذا اراد حقاً ان يجمع الكلمة ويوحد الصفوف ويجاري العصر . ولن تتحقق احلامنا القومية والعربية ما لم يصبح جميع افراد

الشعب مواطنين متساوين امام القانون ، متساوين في الحقوق ، متساوين في الواجبات . قال انيس المقدسي :

دعني وشأني والذي انا عابد وكما يشا ايمان قلبك فاعبدِ
اني اخوك وان يكن ايماننا في البعد مابين الثرى والفرقد
ان فرّق الايمان بين صفوفنا فلساننا العربي خير موحد

وقال الشاعر القروي رشيد سليم الخوري :

سلام على كفر يوحّد بيننا واهلا وسهلا بعده بجهنم

فالركن الاول من ركني تلك الوحدة هو اللغة - اللغة العربية باشعارها وآدابها واصطلاحاتها وتعابيرها وجوامع كلمها وامثالها وخطها وصرفها ونحوها بزيدها وعمرها وجمع تكسيرها ومنتهى جموعها ونون توكيدها ونون إناثها .

اما الركن الثاني فهو التربية التاريخية - التربية في تاريخ العرب بحوادثه ورجاله وابطاله - بانتصار الشعب وانكساره ، بافراحه واتراحه ، بسرائه وضرائه ، بالخير الذي نعم به والشر الذي عمه ، بذكرياته وتقاليده وعاداته وروایاته وقصصه واساطيره وخرافاته ، وما يثير في نفوس الشعب من عواطف واشجان وافراح واحزان ، وما يبعث فيها من روح وثابة ويدفعها الى الامام [1] . ويجب ان تؤول هذه التربية التاريخية الى استعداد الفرد على تحمل مسؤولية ذلك التاريخ وتبعته بوعي او دون وعي .

وللمحن والمآسي اثر ابعد من غيره في توحيد الصفوف وجمع

«١» قابل نفولا زيادة « القومية والعروبة » (القدس ويافا ، ١٩٦٥) ص ٨٠ - ٨١ .

الكلمة واستفزاز الهمم وبعث الوعي القومي . وهي اعظم موحد واقوى جامع وخير مصف للقلوب من الدغل والفساد . هذه حقيقة واضحة لا تحتاج الى بسط او تبسيط . وحسبي الاشارة الى كربلاء عند الشيعة، فلولاها ما استتب لها امر ولم تقم لها قائمة . ولولا النكبة التي حلت بالمانيا في الحرب العالمية الاولى واضحت فرساي رمزاً لها لما قام للنازية بنيان . ولولا المحنة التي نكب بها لبنان في تشرين الثاني من سنة ١٩٤٣ لبقي الجبل الاشم راقداً في احضان «الام الحنون» . فأثر المآسي في تكوين الامم معروف مسلم به لا يعتوره شك ولا يداخله جدال، لاسيما في بلد عانى من المحن والمآسي ما عاناه ولايزال .

ويشتمل التاريخ على اسماء الرجال والمعارك وما يستفز الهمم من سير وايام مثل عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد ومعاوية والمأمون وصلاح الدين واليرموك وحطين . ويشمل ايضاً ميراث الشعب العلمي والفكري واسماء اعلامه وعلمائه امثال الكندي والفارابي والبتاني وابن سينا والبيروني والمعري والغزّالي وابن رشد وابن العبري وابن خلدون وغيرهم مئات .

وخلاصة القول إن العروبة تتطلب معرفة ودراية بلغتها وتاريخها . وبدون تلك المعرفة تمسخ الوطنية الى تعصب وبها تستحيل الى قوة نفسانية تجمع شتات القوم وتسير بهم في معارج المجد والفلاح . فعلينا اذاً ان نحسن لغتنا ونعرف تاريخنا . هذه هي مهمتنا اليوم وغداً . وفي الافق امام اللغة والتاريخ تتجلى العروبة بابهى مظاهرها ، تلك المظاهر التي عزمنا ان نبعثها قوة فعالة لرفع دعائم

البيت - بيت الوحدة الفاضلة .

ورب قائل إن الدين ايمان وافعال . وهـذه عقيدتك ، فأين اعمالك او ما ترتئيه من الاعمال ؟

ان اول ما ارتئيه من الاعمال للاقطار العربية فصل الدين عن الدولة حتى يصبح جميع افراد الشعب مواطنين عرباً متساوين في الحقوق ، متساوين في الواجبات ، متساوين امام القانون والقضاء . ولن تحل مشكلة الاقليات في الشرق ما لم يفصل الدين عن الدولة .

وثاني ما ارتئيه ينبثق عن الاول وهو ازالة الطائفية من حياتنا السياسية . فالطائفية لا تزال اساساً للانتخابات البلدية والبرلمانية وللوظائف والتوظيف وللوجاهة والتوجيـه في العراق وسورية ولبنان وشرق الاردن ومصر والحجاز واليمن وفلسطين .

ثالثاً - تثبيت الحكم البلدي في جميـع مدن الاقطار العربية وقراها واشتراك الشعب في الانتخابات الحرة وتدبير الحكم .

رابعاً - تأسيس احزاب سياسية تقوم عـلى المبادىء لا على الشخصيات والعائلات والاقطاع . ولا يكاد يوجـد في العالم العربي حزب من هذا النوع . أقول هذا مع علمي ان مصر بلد عربي يسير في طليعة البلدان العربية . غير ان الاحزاب السياسية في مصر تفتتت الى كتل تدور رحاها على شخصية أو عمدة .

خامساً - العمل على وضع منهاج الزامي للتهذيب الوطني والعمل على تنفيذه ، اذ لا تقوم الديمقراطية إلا على اكتاف الشعوب المثقفة . ومع علمي بأن الامية ليست مرادفاً للجهل حتما ، لان تراث الجنس كثيراً ما ينقل من جيل الى جيل بالتلقين لا بالتدوين ، اقول ان

الامية اليوم هي اكبر اعداء القومية العربية . ولن تستقيم الحال للقومية العربية اذا تركنا تبعة محو الامية للمدارس والمعاهد الاجنبية ،لأن التربية التاريخية هي كما شاهدنا ركن من ركني القومية .

سادساً – العمل بعد محو الامية واستقرار التربية التاريخية على اطلاق الحرية التامة للصحافة ، لان الصحافة الحرة ركن من اركان الاستقلال وخير حام له مما يهدد كيانه من الخارج والداخل . وليست الحكومات وحدها هي المستبدة بالصحافة بل الشعب الذي يسمح للافراد والجماعات ان يعتدوا على محرر الجريدة شريك للحكومة في العدوان والاستبداد . فعلى الصحافة ان تتحرر من ربقة الحكومات اولاً ،ومن عبودية الشعب الجاهل ثانياً .

*

ومن الناس من سيقول : روبدك يا صاح ، فقبل هذه جميعها يجب ان نبتغي الاستقلال السياسي . اما انا فاقول ان المشكلة السياسية تظهر كبيرة امامنا لقربها من اذهاننا ، مع ان مشاكلنا الاقتصادية والتهذيبية والروحية اعظم . فما لم تتحرر ارواحنا من ذل العبوديات النفسية ، كالاتكالية مثلا ،لا يتيسر لنا الاستقلال الروحي ،ولن تمهد امامنا الطريق الى الاستقلال الفكري . وما دام ادبنا الحديث منقولا وافكارنا افكار غيرنا بقيت اسس استقلالنا السياسي الفكرية متزعزعة . وللوصول الى الاستقلال الفكري يجب ان نضمن استقلالنا التهذيبي وتربيتنا التاريخية . وهذان لا يقومان الا على مدارس إلزامية وطنية .

هذه هي الاسس الفكرية للاستقلال السياسي . اما اساسه

المادي فالاستقلال الاقتصادي ، وبدونه يبقى الاستقلال السياسي خيالا أو حلماً . وبما ان الايام قد انقشعت عن عصر جديد هو عصر القنبلة الذرية ، فقد اصبح الاستقلال السياسي واسسه المادية نسبية . اما اسسه الفكرية فزادت اهمية وعظمت . وعلى هذه الاسس يقوم الاستقلال، وبدونها يبقى سراباً او برقاً خلباً .

وانا لا احسب الاستقلال غاية في نفسه بل وسيلة الى تحقيق غيره من الاهداف، كالمساهمة في التاريخ مساهمة حرة وخلق جزء من حضارة العالم . فما هو اذاً الهدف الذى تسعى اليه العروبة او يجب ان تسعى اليه ؟

لقد كانت الخدمات التي ادتها العروبة للعالم والجزء الذي خلقته من حضارته في عالم الروح والفكر . وعندي ان خدمات العروبة لعالم المستقبل يجب ان لا تخرج عن عالم الروح والفكر ، اذ فيهما تتجلى عبقرية العرب وفيهما تجد العروبة وسيلتها المثلى . فمن العبث اذاً ان نحاول ان نقلد الغرب في حضارته المادية ،ونصيبنا الفشل إن حاولنا. اما في عالم الروح والفكر فلنا الآن كما كان لنا في الماضي آفاق بعيدة نجوبها ،وافلاك واسعة نحلّق فيها كما حلّق فيها اجدادنا من قبل واضاءوا بنورهم طرق الانسان وبدّدوا ظلمات الارض وكانوا هدى للعالمين .

فلنقتدِ بهم ،ولننهج نهجهم، ولنفعل مثلما فعلوا بل خيراً مما فعلوا ، ابداً ذاكرين ان ليس الماضي للعبادة والتبجيل بل للعبرة والالهام ، وليس هو للتقليد والتقييد بل للبعث والاستفزاز .

والامة برجالها لا برفاتها ، وبأحيائها لا باموانها .

فهرست

مقدمة	٣
العرب الاحياء	٥
العرب وحضارة البحر المتوسط	٢٠
رسالة الشباب العربي	٣٩
بين المدرسة والبيت	٤٩
بين الاقليمية والوحدة	٥٦
مشهد من مشاهد السيرة	٦١
المرأة العربية	٦٩
الكشاف العربي	٨٥
فلسطين	٩١
العالم العربي ومستقبله	٩٤

١٩٤٧ - ٥ - ٧٤

obeikandl.com